الينابيع

بقلم صدقي اسماعيل

من حكمة العرب القدماء انهم كانوا احراراً . كانوا يمارسون حريتهم دون ان يفكروا بها او يتحدثوا عنها كثيراً ، كما يفعل الناس في هذا العصر ، كانوا يرونها فعلاً وتجربة ، شيئاً يشبه تدفق الينبوع في قلب الوادي ، وانطلاق النسر في اجواز الفضاء . يقول الرجل كلمته دون خوف ولا حذر ، ولو ادت به الى الموت . وفي كل لحظة من حياته يتصرف تصرف سيد جدير . وقد تسلب حريته ، فيعتبر النضال من اجلها فعلاً حراً ، فيتكبد المشاق ويتألم في كفاحه ، دون ان يرضخ ويستسلم للاحلام . وعندما تعييه الحيلة في رفع نير الذل ، كان يؤثر الرحيل لكي يبقى طليقاً . قد يهجر اسرته وعشيرته ، ويفخر باحتمال حياة التشرد وصحبة الوحوش في الصحارى ، صيانة لحريته .

وكانوا يفهمون الحرية فهماً بسيطاً اقرب الى مدارك الاطفال : ان يعيش الانسان حسب نظرته . كانت ام حاتم الطائي مشهورة بسخائها وبذلها ، وقد وهبت ذات يوم ما تملك للناس ، فأنّبها بعض قومها فتمردت كمن يراد استعباده ، وقالت : « وكيف بتركي يا ابن امي الطبائعا » وكانوا يرون التخلي عن « الحياة وفق طبيعتهم » نوعاً من الاسر . يستعبد الانسان عندما تكون تصرفاته صادرة عن سيد يستخدمه ويأمره ، اي يحول بينه وبين ان يحيا بنفسه ، وذلك هو الرق . والذي يتخلى عن نفسه في نظر العرب القدماء ، كان أهلاً لان يستعبد ويسترق . فمن لا يمارس حريته فهو غير جدير بها . كانوا قساة في نظرهم الى الانسان ، فلم يكونوا يفهمون الضعف فيه اطلاقاً . كان قوياً في نظرهم مسؤولاً عن كل لحظة من وجوده ، فعندما يكون ذا نظرة انسانيه سليمة ، ينتزع حريته انتزاعاً ، ذلك ما فعله عنترة وعمرو بن كلثوم وكثيرون .

وقد يشعر الانسان بقيود البيئة ، باوامرها ونواهيها ، وسلطان التقاليد أو الدولة ، عندئذ تثقل خطاه العبودية ، وتجعل اعماله دخيلة على فطرته . والذين يشعرون بذلك كانوا يتمردون ، ويعلّمون المجتمع نفسه اعرافاً اكثر تلبية لفطرة الانسان . كانت حليمة بنت الحارث الغساني اولى النساء اللواتي خرجن في قومهن الى الحرب . فقد ضمخت رؤوس الفرسان بالطيب ، وصمدت في قلب المعركة . وضرب بها المثل . والمثل عند العرب عرف يتبع . بعد ذلك قالت الخنساء وجليلة وجندب ، شعراً رائعاً ، ونضّرت عفوية المرأة وطبيعتها الغنية ، كل مكان من صحراء العرب ، وناضلت نساء نوابغ في سبيل رسالة محمد . واللواتي تخلين عن طبعهن وحريتهن ، لبثن فريسة للبيئة ، وكن مصدر عار ، واحياناً كان لهن الوأد عقاباً ...

وقد يكون الانسان نفسه مصدراً لعبوديته : فالحرص والخوف من الموت والاستغراق في الملذات ، وحب الامتلاك والنفع ، تلوث فطرة المرء وترهقها بالاغلال . وكان العرب القدماء يسمونه وغداً أو جباناً زنيماً . كانوا يقولون : « لا طبع له » . وكانت هناك الرذيلة كلها . عندما اتهم امرؤ القيس بالجبن والتردد عن الثأر حرصاً على ملذاته ، كان يؤمن ان طبيعته هي غير ما يزعمون ، واصبحت كل قضيته في الحياة ان يعرف الناس من هو حقاً ، ان يعيش فطرته الطليقة ، وقضى دون ذلك .

وكانوا يقرنون بين الحرية والصفاء . فكما ان صراحة النسب تتمثل عندهم في بعد الانسان عن الهجنة والاقراف ، كذلك كانوا يرون حرية المرء ان يكون نفسه ابداً ، ان لا تشوب افعاله تصرفات ليست من طبيعته . يقول احد شعرائهم : « فلا عبرت بي ساعة لا تعزني » وهو يعني ساعة لا اجد فيها بالفعل رغبة النفس في العظمة . والذين كان الكرم سجيتهم كانوا يشعلون نار القرى كل حين ، ويهبون ابداً ، فيوم من دون عطاء كان يوماً دخيلاً ، لا يحمل طابع وجودهم . كان بسطام بن قيس افرس العرب ، فكان يرى ساعة الامن والراحة خيانة وعاراً منذ ان ضرب المثل ببطولته وعرف طبعه ، وكانت حياته نضالاً دامياً من اجل ان يحمي حقيقته ، كما يقولون ، من اجل ان يكون إياه كل حين .

ثمة اعتقاد راسخ عند العرب القدماء ان لكل امرىء طابعاً متميزاً في مجتمعه ، هو فطرته ، يجعله ينبوعاً لفعال جديدة ، واشياء خارقة يغني بها هذا المجتمع ويبدع فيه كان التجانس والتشابه في نظرهم عاراً . ان يكون الانسان كالآخر ، ذلك يعني ان المجتمع يستطيع الاستغناء عنه . فكل

« من فضيلة العرب القدماء انهم كانوا احراراً ، وكانوا يمارسون حريتهم في حرارة وقوة ، ايماناً منهم بنبل الطبيعة الانسانية وقدرتها على اغناء الحياة وتجديد وجه الارض بما يجسده الافراد في فعلهم وابداعهم . »

فرد يجب ان يكون صورة فذة عن الانسان ، نموذجاً لا غنى عنه ، اسلوباً في الحياة ذا لون متفرد . لذلك كانوا يعنون بالافراد دون الجماعات . فالجماعة تعرف باسم واحد منها ، باسم الذي يستطيع ان يمارس فطرته في جموح وعنفوان لم يرق اليها الآخرون ، احياناً تعرف بفارسها او بشاعرها النابغ أو بامرأة فذة من نسائها . المهم في كل شيء ان يكون الانسان ، هذا او ذاك ، صفحة جديدة في سلوك البشر ، بذلك وحده يكون لوجوده معنى ، يكون بتعبيرنا المعاصر ، وجهة نظر جديدة في الحياة . كان عمرو بن قميئة — الذي دعي بالضائع — شاباً يتيماً يعيش في كنف عمه . وكان لعمه زوجة جميلة يروى انها حاولت إرغام الفتى على الخيانة واتهمته ، فلم يجد سبيلاً يحفظ له نفسه غير الاعتزال . وقضى حياته كلها في خيمة نائية لا يقترب من الناس حتى نيف على السبعين . وجهة نظر خارقة في مقاومة العار .

وفي الشعر كان هذا الاعتقاد يبدو بشكل اوضح . كان العرب يردون كل ينبوع ، ويصغون لكل شاعر ، وكان الشعراء جميعاً يطرقون نفس المواضيع ؛ الحرب والليل والخمر وتشبيه النساء بالجاذر . ولم يكن هذا ليحول بينهم وبين الابداع والجدة . وكان على العرب ان يعرفوا كيف يرى كل شاعر اشياء الناس وفعال الناس ، وكيف ينشد القصائد عنها ، فقد يعلمهم المتلمس من الاحساس بايقاع الخيام الدارسة ، ما لا تراه حاسة زهير وامرىء القيس . فلكل ينبوعه المتفجر وشطآنه والحانه .

وعندما هدد طرفة بالموت ، وهو فتى ، اقدم عليه بنفسه ، فكما يستقبل لبيد حكمة الموت في شيخوخته الهادئة ، كان على الناس ان يتعلموا فن الموت في الشباب كما صنعه طرفة بيديه .

لكي يتاح لهذه الينابيع ان تغدق من جدتها على العالم ، كان الوجود على الارض في نظر العرب القدماء نعمة مباركة . على الانسان ان يفتح ذراعيه لكل تجربة ، ويعتصر اعتصاراً ، ما دامت الغاية ان يجدد اسلوب الحياة . ولم يكونوا يجتمعون من أجل تبادل المصالح والنفع ، كما يفعل اناسي هذا العصر ، بل كان هذا التجديد هو الميدان الوحيد لمجتمعهم ، كان كل قضيتهم في الحياة . وكان من حكمتهم انهم لم يكونوا يحلمون بالقضية كثيراً أو يبحثون امر تخفيفها ، بل كانوا يحيونها بكل كيانهم ويستجيبون في حماسة واعية لكل تجربة تكون لها سبيلاً . يلتفون حول شاعر مبدع ، ويضعون يدهم في يد فارس ، وينطلقون تحت راية نبي . الناس تجسد فيهم الافضل والاعظم من عفوية الطبع الانساني ، وعلى الآخرين ان يتعلموا منهم كيف يكون الخلق والابداع في حياة البشر ، كيف يكون الانسان حقيقته . . .

ولم يكونوا يؤمنون بالافكار وما يذهب إليه التصور والخيال ، من ضروب الفضائل ، بل كانوا يتعلقون بالفضيلة مجسدة في انسان ، ويؤمنون بالفكرة فعلاً تنبض فيه الدماء الحارة . ولم يكونوا في ذلك ليعرفوا متعة المألوف والعادي . كانوا يحكمون على الرجل بمقدار ما هو انبل العرب واكثرهم سماحة ، وعلى الشاعر بمقدار ما يكون اشعرهم ، وعلى الحاكم بمقدار ما هو اعدل البشر . نزعة جامحة إلى النموذج الذي يجسد العظمة ويعلمهم ما يمكن ان يفعلوا من خوارق اذا هم اخلصوا لفطرتهم . الم يتحدر مثلهم من اجداد اشداء ويتكلم لغتهم ، ويجعل معهم عمر الامة التي ينتمون اليها تاريخاً حافلاً بالمآثر ، شيئاً جديراً بان تتعلم الاجيال منه فن الحياة الانسانية ؟

واذا كانت شهوة العظمة هي الفلك الوحيد الذي تدور فيه مجتمعات العرب القدامى ، فقد كان عليهم ان يمتلكوا جميع شروط الحياة في حرارة وعنفوان : الجسد القوي ، والفتوة الدائمة ، وكل ما يتوسل به للتمتع بمسرات الوجود ، وتأمين ضروريات العيش . وكان البؤس عندهم أن يفتقر الانسان إلى احد هذه الشروط ، فيقف على حافة الطريق طليحاً ، كل همه ان يرمم نفسه ، عندئذ تكون الاحزان والافكار السود ، ويكون حب الانتفاع والانانية ، كما نقول اليوم ، كل قضيته في الوجود ، يكون واحداً من قطيع يبحث عن الظل والماء ، كما هي الحال في هذا العصر الذي تأسر الانسان فيه شروط الحياة ، وتلجم كل نزعة للانطلاق ، وتجمد كل ينبوع . . .

ولم تكن الدولة حقيقة خالدة في نظر العرب القدماء ، بل هي شيء يدول . كل مهمتها ان تزيح عن كاهل الفرد عبء الاهتمام بشروط حياته ، قد تحمي حقوق الناس وتفرض عليهم الواجبات ولكنها تلبث وسيلة لا سلطان لها على نفوس الافراد وطبائعهم . عندما يكون الاجتماع من أجل المعيشة والرفاه فحسب ، تكون الدولة حقيقة ابدية ، ذات سلطان قاهر وقدسية . اما عندما يكون المجتمع كله من أجل العظمة ، فان الدولة تلبث الخادم الأمين لا اكثر . وحين دان العرب القدامى للدولة ، كانوا يتوجهون للبطل الكامن وراءها ، أو للعظيم او للنبي . وقد اشار ابن خلدون بحق إلى انهم لم يكونوا ينقادون للدولة إلا مع العصبية والنبوة . والعصبية التفاف حول بطل القوم ؛ والنبوة اجتماع حول كلمة الله ، حول اللانهائي والمطلق . .

من فضيلة العرب القدماء انهم كانوا احراراً . وكانوا يمارسون حريتهم في حرارة وقوة ، ايماناً منهم بنبل الطبيعة الانسانية وقدرتها على إغناء الحياة وتجديد وجه الارض بما يجسده الأفراد في فعلهم وابداعهم . كانوا يرون الحياة جميلة رائعة ، ويحبونها ، ولكن حافز العظمة في فطرتهم البكر ، كان يفجر في نفس كل منهم ينبوعاً زاخراً بصورة جديدة للحياة ، يجعل للأرض نفسها معنى انسانياً لا حدود لروعته . يقول شاعرهم :

كيف الحياة اذا خلت ... منا الظواهر والبطاح !

دمشق

صدقي اسماعيل